قصص

خالد عُودة اللَّه

نظرية اللعبة

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

ISBN 978-977-85022-7-5

9 78 977 85022 7 5

مدارات للأبحاث والنشر

MADARAT for Reseach and Publishing

العنوان: ٥ شارع ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

التليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

www. madarat-rp.com info@madarat-rp.com

نظرية اللعبة

نظريَّة اللُّعبة (قصص)
تأليف: خالد عودة الله

الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤٣٥/ يناير ٢٠١٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠١٣/٢٣٣٠٣
الترقيم الدولي ISBN 5-7-85022-977-978

تصميم الغلاف
عبد الرحمن نجم الدين - أنس خالد

جميع الحقوق محفوظة للناشر c

مدارات للأبحاث والنشر
٥ شارع ابن سندر- الزيتون- القاهرة- جمهورية مصر العربية
ص.ب ٣٠ منشية البكري ، رمز بريدي ١١٣٤١
تليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
www.madarat-rp.com info@madarat-rp.com

الإشراف العام
د. أحمد وجيه السيِّد - د. أنس خالد زبيده - أحمد عبد الفتاح بيُّومي

خالد عودة الله

نظرية اللعبة

(قصص)

مدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين

"سورة العنكبوت، آية ٦٩"

« لكأنني الأضداد في رجلٍ تقاتله وحوش يديه »

شوقي بزيع

عندما بدأ الشيخ زكريا يضل طريقه إلى المسجد

عندما بدأ الشيخ (زكريا) يضل طريقه إلى المسجد كان المحقق (أيمن) أول الواصلين لمعاينة الجثة المجهولة المستلقية في جوف المغارة.

وقف عند باب المغارة يُحكم تثبيت الكمامة على وجهه، محاولاً بيأسٍ حجب الرائحة النتنة عن أنفه.

يتوارى باب المغارة الضيِّق خلف صخرة ضخمة، نمت على حوافّها نبات الغيصلان والطيّون، ثم تتسع لتتشعب إلى ثلاثة سراديب لا تُعرَف لها نهاية.

لسببٍ يجهله الجميع، ولم يتساءل عنه أحد، لم يكن للمغارة إسمٌ

كباقي مغارات القرية، بل إنَّ الوادي الغربي الذي تتوسطه المغارة صار يُسمّى في لحظة ما من التاريخ بـ «وادي المغارة».

نسج أهالي القرية على مرّ السنين حكايات كثيرة حول المغارة، وأرّخوا لتقلبات الزمان والسلطان بما دار حولها وفيها من أحداث. وهكذا تناسلت الحكايات عن صوت القرآن المنبعث من المغارة قُبيل الفجر إلى زمن قريب، قبل أن تفسد أحوال الناس، كما كان يردد الشيخ (زكريا) إمام مسجد القرية الضرير. وعن شبان القرية الذين لجأوا إلى المغارة، هربًا من حملات تجنيد الجيش العثماني لحرب المسكوب ولم يخرجوا منها إلى الآن. وعن كلاب أثر جُنّ جنونها، وولت هاربة مذعورة، عندما دفع بها الجنود الإنجليز إلى سراديب المغارة بحثًا عن الأسلحة والذخائر أثناء ثورة ١٩٣٦. وعن جلسات التحقيق الرهيبة مع العملاء في جوف المغارة إبَّانَ الإنتفاضة الأولى.

لم تكن الرائحة النتنة، هي معركة (أيمن) الوحيدة. وإنما كان عليه التغلب أيضًا على رهاب المناطق المغلقة، خاصة الرطبة منها، الذي يعاني منه ويكتمه عن الناس. استجمع قواه وحبس أنفاسه، ودخل المغارة مدفوعًا بغواية الجثة الأولى التي يحقّقُ في أمرها بمفرده، منذ عودته من دورة التشخيص الجنائي المتقدمة في «السكوتلاند يارد» بلندن، كان قد عمل على ترشيحه لهذه الدورة، وترتيب إجراءاتها السيرجنت (لورنس) من البعثة الأوروبية لتدريب الشرطة الفلسطينية.

توسَّم لورنس في أيمن الطموح والجديَّة، وأهَّله انضباطه الحديدي، ليكون موضع اهتمام (لورنس) الدائم، الذي طالما ربَّت على كتفه قائلاً: «سنبني معًا وحدة للتشخيص الجنائيِّ، حتى الإسرائيليين، سيحسُدونكم عليها».

نمت بين الإثنين صداقة توثَّقت عُراها مع الأيام، تبادلا الهدايا؛ الشيكولاته وشاي «الايرل غراي» مقابل الزعتر والميرمية والجعدة الخضراء. كان إهتمام (لورنس) المبالغ به بالجعدة، وإصراره على تسلُّمها خضراء يانعة، لغزًا حيّر المحقِّق (أيمن) على الدوام، إذ عجز عن تفسير كل هذا الإهتمام بالجعدة، والإلحاح في طلبها، بطريقة تفتقر إلى اللباقة في كثيرٍ من الأحيان، على حساب المريمية والزعتر. وعلى عكس ما توقعه من أجنبي يألف -على الأغلب- «الثايم» و«السيج» لا الجعدة.

كان (لورنس) يحمل لبابيب الجعدة الخضراء ليضعها على ضريح (لورنس) الجد، ضابط الإستخبارات العسكرية الملكية، الذي كان يخدم تحت إمرة الجنرال (أللنبي)، ويرقد -بسلام- في مقبرة الجيش البريطاني في أرض السمار بالقرب من الجامعة العبرية في القدس.

كان (لورنس) الجدّ مُولعًا بنباتات الأرض المقدسة. وفي إحدى رسائله إلى عائلته في إنجلترا أرسل بعضًا من أوراق الجعدة، «أشد نباتات الأرض المقدسة العطرية غرابة على الأنف الإنجليزية»، كما وصفها في رسالته تلك

التي لا يزال (لورنس) الحفيد يحتفظ بها، مع بعض متعلقاته الشخصية، في صندوق شيكولاته «كوالتي ستريت» صدئ، شيكولاتة جده المفضلة، ويحمله معه أينما ارتحل في مهماته لبناء الأجهزة الشرطيّة في مناطق «ما بعد النزاعات» في آسيا وإفريقيا.

وقف (أيمن) عند رأس الجثة مقدراً أنها قد دخلت المرحلة الثالثة من التحلُّل، كانت العيون الواسعة للجثة قد ذبلت وتكسَّرت رموشها وانهمر داخلها سيلٌ من الديدان العاجية الهلامية ينسكب بلا نهاية من ثقب غائرٍ أسفل العين اليسرى، وتستمر الديدان بالزحف على الوجه والعنق والصدر، ويتخذ مسارها خطًا مُقوَّسًا نحو اليمين لتصل الى بركة صغيرة من زلال الخلايا والدم تشكَّلت في تجويفٍ أسفل البطن.

كانت إناث الذباب الأزرق تنشط بجنون في حقن تقرحات الجثة بكمية هائلة من البيوض، وما إن تفرغ من وضع بيوضها وتطير، حتى يقع العديد منها في شِباك العناكب المنسوجة ما بين يدي الجثة وجدران المغارة.

ووجدت الدبابير الحمراء في الجثة وليمة دسمة، أبعدتها عن الإغارة على صناديق النحل الموزعة على أطراف الوادي بالقرب من المغارة، مُوَفِّرةً بذلك على مُربيِّ النحل في القرية عناء وتكاليف نصب مصائد للدبابير، ما أسهم في نجاح موسم العسل ذلك العام، وحمل الحمام الرقطي اليرقات المتساقطة من فتحات الأنف ليلقمها فراخه النهمة في أعشاشه على أشجار القرية وسطوح منازلها.

حياةٌ نشطةٌ ونظامٌ للمنفعة المتبادلة كان قد تشكّل حول الجثة وفيها .

تفحّص (أيمن) الجثّة بعناية، مسجلاً العديد من الملاحظات في دفتره. قام بتصويرها وجمع عيّنات من التربة حولها، ومن ثمّ نُقلت إلى معهد الطب الشرعي في جامعة القدس في أبوديس، وذلك بعد أن تكافأت دلائل الإنتحار والجريمة في عقله الجنائيّ الإنجليزي الطازج. بقيت الجثّة في ثلاجة المعهد لمدة ثلاث سنوات، ثمّ تقرّر دفنها بعد تعذُّر التعرف على هوية صاحبها.

عام الجثة المجهولة في المغارة..

بهذا سيؤرخ أهالي القرية لبداية إنتشار وباء الرائحة النتنة، الذي ابتُليت به القرية.

رحلت الجثّة، ولكنّ رائحتها النفّاذة النتنة أبَت الرحيل، وسكنت في كل تفاصيل الحياة في القرية. في زوايا البيوت والخزائن، وعند فتح صنابير المياه وحراثة الأرض، وعند فتح أبواب البيوت في الصباح ونفض السّجاد في بداية الصيف ومعاودة فرشه في بداية الشتاء. وعند فتح قناني المشروبات الغازيّة، وحفر أساسات البيوت الجديدة، وعند تحريك الطعام في قدور الطهي، وفوران القهوة أثناء غليها. حتى أن الشيخ (زكريا) بدأ يفقد قدرته العجيبة في الوصول إلى المسجد من أي مكان في القرية، مستعينًا برائحة الأمكنة والبشر، وصار يضل طريقه ليجد نفسه داخل المقهى حيث «شياطين الإنس تعلم شياطين الجن، فنون الفجور»، كما كان يصف المقهى وروّاده

في مواعظه وخطبه. ولم يعد من الممكن حتى التندر على رائحة العرق المتخمر المنبعثة من زبائن دكاكين القرية وورشها من «السكناج»(*)، القاطنين في المستوطنة المقامة على أراضي القرية.

لم تنفع كل الحيل والمساحيق، وحرق إطارات «الكاوتشوك»، ومزيلات الروائح والتهوية، في القضاء على الرائحة النتنة، وبدأ أهالي القرية يشكُّون في أنهم ضحايا وسوسة لعينة عشعشت في رؤوسهم جميعًا. بعد كثير من التجريب والمشاورات، لم يعد أمام مَن تبقى في القرية ولم يهجرها، أو من عاد إليها بعد أن هجرها ووجد الرائحة النتنة ذاتها تكمن له في موطنه الجديد، سوى حشو القطن في فتحات الأنوف.

مرت الأيام ونسي أهالي القرية الروائح وأنواعها، ولم تعد هناك ضرورة للتعطُّر، ولا حتى الإستحمام إلاَّ عند مداهمة الحكة للجلود. ومع مرور الزمن تلاشت الكلمات الدالة على الروائح من لغة أهل القرية، وصار القطن المحشو في فتحات الأنوف علامة على بلوغ الأطفال سنّ الإدراك، وغابت العطور ومزيلات رائحة العرق عن رفوف دكاكين القرية، ولم تعد المياه العادمة، المتسربة من مجاري المستوطنة المجاورة إلى وديان القرية، مدعاة للتذمر والشكوى ورفع العرائض الغاضبة إلى مجلس المستوطنة البلدي.

ذبلت الحياة في القرية، وحطّت عليها غمامة كئيبة، غرق الناس في

(*) اليهود المتدينون، والمشهور عنهم - عند الفلسطينيين- القذارة والرائحة النتنة.

موات وسكون، بعد أن لجّوا في ضجيج التحولات الكبرى في كل تفاصيل الحياة الصغيرة.

لم يفلح أحد من أهالي القرية في الإفلات من قبضة الرائحة النتنة سوى (أبو الذيب)، فقد بدا للجميع أنه قد تدبّر أمرها بطريقة ما. التصقت صورة (أبو الذيب) في أذهان أهالي القرية بعبارته الغامضة التي كان يرددها منذ أن قدم إلى القرية: «لا أوخم من رائحة جثة ابن آدم وخاصة جثث المخاتير».

كان (أبو الذيب) قد قَدِم إلى القرية مجلِّخًا للسكاكين قبيل النكسة، حاملاً دولاب السنّ على كتفه، يجول به القرى والخِرَب، وذاع صيته كقناص ماهر أثناء تصديه مع رجالات القرية لغارة صهيونية ليلية سبقت النكسة بأيام.

سكتت البنادق وحلّت الهزائم، ولم يرجع إلى بلدته، وقرر البقاء في القرية، وعندما كان يسأله أهل القرية عن سبب عدم عودته إلى بلده كان يجيب: «على المقاتل أن يموت في المكان الذي أطلق فيه رصاصته الأخيرة».

أما لقب (أبو الذيب) فقد وهبته إياه (أم هزيم) حكيمة القرية ودايتها المنحدرة من أصول بدوية.

كان ذلك عندما أتاها في صبيحة يوم ربيعي بذئب صريع يقطُر دمًا، وضعه أمامها، وأخرج خنجره منتزعًا عظام حنجرته. كانت (أم هزيم) قد

طلبت من خويّها (أبو الذيب)، بعد ذيوع صيته في الشجاعة ومهارة القنص، أن يصطاد ذئبًا من البريَّة، لعمل تمائم من عظام حنجرته، تُعلَّق على صدور الأطفال المصابين بالسُعال المزمن وبحة الصوت.

خَبر (أبو الذيب) طبائع الجثث الآدمية وتصالح مع روائحها منذ زمن بعيد، ففي ليلة عوت فيها الذئاب كثيراً، التقطت عينا البوم، المثبتتين في رأسه، متسللاً من المستوطنة المجاورة بالقرب من مقبرة القرية، زحف (أبو الذيب) على بطنه وكمن له عند بوابة المقبرة، وعالجه بخنجره بضربة واحدة لا ثانية لها، ثم سحبه إلى داخل المقبرة.

لم يجد (أبو الذيب) مكانًا بعيداً عن الشبهات لإخفاء الجثة، أفضل من قبر المختار المتوفى قبل أسبوع حينها. سحب الجثة باتجاه القبر، وبدأ يزيل التراب عن بلاطة القبر، ومع كل ضربة معول، كانت رائحة شواء كريهة تتسلل إلى الهواء، وما إن فتح القبر حتى نفث القبر رائحة نتنة طرحته أرضًا.

استجمع قواه ووقف على قدميه، ثمَّ أدخل الجثة إلى قبر المختار مخاطبًا إيَّاه: «جتتك بمن يسليك ويشاركك أهوال عذاب القبر».

مرّت الليالي. هجرت الذئاب أوكارها في البريّة، وفقدت عينا (أبو الذيب) قدرتهما الخارقة على الرؤية الليلية، وفي ليلة اكتمل قمرها، لفظ (أبو الذيب) أنفاسه الأخيرة في ذات المكان الذي أطلق فيه رصاصته الأخيرة.

في الصباح شيَّعته القرية في جنازة مهيبة، جمعت (أم هزيم) دموعها في مدمعة دُفنت معه في مقبرة القرية، بجوار «الجثث الغريبة» التي تكاثرت في قبور القرية على مر السنين. ألقى الشيخ (زكريا) موعظة الدفن، بلَّلت كلماتها لحيته بالدموع، لينفضَّ بعدها رجال القرية للعناية بحقول القطن، التي عرفتها القرية للمرة الأولى، بعدما أدخلتها مؤسسات التنمية علاجًا لأوضاعها المعيشية المتردية.

لفَّ سواد الحداد القرية، سوادٌ لم يعكره سوى بياض القطن في حقولها وما نتأ منه من أنوف أهلها، وبريقٌ مفترس، يشع ليلاً من عيون مَن عُلِّقت تمائم عظام الذئب على صدورهم صغارًا.

خمسة سنتيمترات مربعة من التيتانيوم

وقف (أرييه) يُحصي العرب الواقفين في الطابور بانتظار العبور من آلة كشف المعادن على الحاجز.

سحب كرسيًا، وجلس رافعًا قدميه، ملصقًا حذائه العسكري بالنافذة الزجاجيّة التي يضبط من ورائها إيقاع الحياة علىَ الحاجز.

مدَّ يده إلى لوحة التحكم بآلة كشف المعادن، وضبط المؤشر عند الدرجة واحد، أقل درجات الآلة حساسية للأجسام المعدنية.

بدأ العرب بالعبور من البوابة بسرعة وسلاسة، دون أن تُصدر الآلة صفيرها الحاد المعتاد، مع أنّ بعض العابرين لم يكونوا قد أفرغوا جيوبهم من

كل ما هو معدنّي. بدأت تحليلات وتخمينات الواقفين في الطابور تتوالى، محاولةً تفسير هذا التساهل غير المعهود على الحاجز.

علّق أحدهم: «يبدو أن هذا الجندي من أبٍ عربي».

أكمل ثانٍ: «وذا ميول يساريّة».

قاطعه ثالث: «بل إنه ملل ورتابة الخدمة العسكرية».

وبينما توالت التحليلات، كان (أرييه) ينظم حركة العبور على الحاجز، مستخدمًا لغة الإشارة، دون النطق بكلمة واحدة، فيشير بكف يده نحو اليمين للتقدم، ونحو اليسار للرجوع، ويطّلب إبراز بطاقة الهوية برسم مربع بسبابته في الهواء.

كل شيء سار بهدوءٍ وانتظام، إلى أن عبر عجوز سبعيني البوابة، وأكمل سيره نحو المخرج، دون أن يبرز بطاقة هويته.

شَغَّلَ (أرييه) المايكروفون، وطرقه عدة مرات بإصبعه ليلفت انتباه العجوز إليه، ثمَّ قام برسمٍ مربع في الهواء. لم يفهم العجوز مغزى الإشارة المربعة، وعاود التوجه نحو المخرج. طرق (أرييه) المايكروفون للمرة الثانية وعاود رسم المربع في الهواء للمرة الثالثة، ومرة أخرى لم يفهم العجوز ما الذي يريده (أرييه) منه، فتوجه إلى النافذة الزجاجيّة مخاطبًا إيّاه بنزق:

- «دعني أعبر، ماذا تريد مني؟.. انطق.. هل أنت أخرس؟»

حدَّق (أرييه) في العجوز بنظرة استجداء.

بلع ريقه، ثم قال:

- «هه هه هه هوية»

خرجت الهاءات مجلجلة من مكبر الصوت لتنطلق ضحكات طويلة من قِبَل زملائه الجنود، ومن الواقفين على الحاجز فور سماع هاءات (أرييه) المتتابعة.

إحمرَّ وجهه واصفر. نقرت الضحكات رأسه كضربات نقَّار الخشب، واهتزَّ جسده كوترٍ رديءِ الدوزنة.

تاهت عيناه تبحث عن نقطة يثبتهما عليها، ليتقي نظرات الأعداء والأصدقاء، بعدما تحولت غرفة المراقبة إلى قفص، يشبه قفص القرود الزجاجي في حديقة الحيوان المقامة على أنقاض قرية المالحة، أمام أعين الزوار المتفحصين لتفاصيل الجسد الحيواني. مرَّت لحظاتٌ ثقيلة، ثمَّ عاد السكون ليخيِّم على الحاجز من جديد.

كان (أرييه) حريصًا على تجنب الكلمات المفخَّخة بحرف الهاء، ذلك الحرف اللعين، الذي يخنق الهواء في حلقه عند لفظه، ويشعر بأعضائه تتساقط كشظايا المرايا التي كان أبوه (بوعز)، يبدأ بتحطيمها كلَّما وقف أمامها، وتحسس نتوءات وجهه المهشم.

حياة مهنيّة عسكرية ناجحة، وأحلام تصل إلى هيئة الأركان، هي ما كان يعيش تفاصيلها (بوعز كاهلاني) الضابط في وحدة «جولاني».

بدا له القدر أليفًا مطواعًا فيما يهمُّ به، ويبسط أمامه دروبًا سالكة للوصول الى ما يريد. فقد حصل على نتيجة ٥٢ من ٥٤ ، في امتحان «الكابا»، الذي يحدد مستقبل المجندين الجدد؛ الوحدات التي يمكن الالتحاق بها، والرتب القيادية التي يمكنه بلوغها في «جيش الدفاع». فُتحت أمامه أبواب المؤسسة العسكرية على مصراعيها، وأنهى دورتين للضباط في كلية هيئة الأركان بتفوق باهر، وزيّن صدره بوسامِ الشجاعة تقديراً لأدائه الإستثنائي في عملية خاصة خلف خطوط «العدو»، لا زالت تفاصيلها تخضع لحظر النشر من قِبَلِ الرقابة العسكرية.

إنهمك (بوعز)، بصرامة المخطِّط العسكري، في رسم معالم الخطة التي ستوصله إلى قيادة هيئة الأركان. تعرَّف، عن قرب، على شبكات مجموعات المصالح داخل الجيش وخارجه، حدَّد مراكز الثقل في اتخاذ القرار، ومن ثمَّ نسج علاقاتٍ تيسِّر له بلوغ هدفه. أبعد منافسيه المحتملين بتكتيك حرب الإستنزاف.

كل شيء سار حسب الخطة، وبدأت العجلة تدور إلى أن حلَّت ذكرى «يوم الأرض». وأثناء تقدُّمه دورية راجلة في مدينة نابلس، مدَّ (بوعز) رأسه ليستطلع الطريق أمام جنوده عند إحدى زوايا حارات البلدة القديمة، فهوى ملثمٌ بقناع أسود على رأسه بفأسٍ لمعت أمام عينيه كالبرق. هشَّمت الضربة جبينه، وأخرجت إحدى عينيه من محجرها، وأزالت نصف أنفه العلوي.

حَرَفَ الملثَّم، مسيرة «بوعز» المتقدمة بثقة نحو المجد، إلى الجحيم.

ستة أشهر في وحدة العناية المكثّفة، وسنتان في أقسام جراحة الأعصاب والرأس، وثلاث عشرة عملية ترميم وتجميل، وخمسة سنتيمترات مربعة من معدن التيتانيوم لرقع هتك في الجمجمة، وعينًا زجاجية، ونصف أنف بلاستيكي، وسنتان في مصحة نفسية للعلاج من حالة متطرفة من حالات ما بعد الصدمة. ذلك ما كان ينتظر (بوعز) بعد أن رماه جبل النار بشَرَره.

كان «التيتانيوم» يتحوّل في الصيف إلى صفيحٍ ساخن، يلهب جبهة (بوعز)، أما في الشتاء فكان يشعر بقطعة جليد مغروزة في رأسه، فيقف أمام المرآة يتحسس وجهه، متتبعًا بأطراف أصابعه حدود الجسم المعدني الذي يستوطن رأسه، ليبدأ شريط طويل من الصور يمرُّ أمام عينيه.

الجندي الوسيم مفتول العضلات، نافر الشرايين، حامي صهيون، الممتلئ بأحلام لا حدود لها. تتسارع الصور وتتداخل.

«الكيرياه»(*)، تحوُّل الضوء الأحمر الى الأخضر في تدريبات القفز بالمظلة ليلاً، المربعات المعدنية في سقف غرفة العمليات، عينا الملثَّم، المقاعد البرتقالية في المصحة النفسية، أزقة القصبة. تتسارع دقات قلبه، ويشرع في العويل والصراخ:

«لاما أني... لاما أني... لاما أني» (لماذا أنا؟)... يستحيلُ وحشًا عنيفًا ويبدأ في تحطيم المرايا والزجاج والأثاث، وينهال على زوجته (يوليا)، التي تحاول تهدأته، بلكمات قوية، أتقن فن توجيهها في تدريبات القتال الملتحم.

(*) مقر وزارة الدفاع الإسرائيلية.

ما إن تبدأ أصوات الشظايا وصراخ (بوعز) وبكاء (يوليا) تجلجل في البيت، حتى يركض الطفل (أرييه) باحثًا عن مكان يحتمي فيه من هذا الجحيم. يُسرع إلى غرفته، ويوصد الباب، ثم يختبئ تحت السرير، أو في خزانة الملابس. وعندما كان يشعر أنَّ غرفته لم تعد قادرة على منحه الأمان، كان يهرع إلى الملجأ العمومي المظلم للعمارة السكنية ذات الطوابق العشرة.

كان (أرييه) يُشوى على مهلٍ في فرن نوبات أبيه المسعورة، إلى أن نضج موشومًا بعسرٍ في النطق، وانطوائيّة كانت محل استهزاء دائم من قِبَلِ أولاد الحي، وزملاءِ المقعد الدراسي.

لم يتغيَّر (أرييه) كثيرًا حتى بعد تجنيده في الشرطة العسكرية، ففي معسكرات التدريب أصبح هدفًا مفضلاً لمقالب رفاقه في الجندية. كانت أسوأ أوقاته عندما تُطفئُ أنوار المهجع، ويبدأ زملاؤه برميه بكلمات ذات إيحاءات جنسية، فينكمش في سريره ملصقًا ظهره بالحائط، ويبقى مشدود العضلات إلى أن يتأكد أن الجميع قد غطّوا في نوم عميق.

فعلت العقاقير، وجلسات العلاج النفسي فعلها في (بوعز) وبدأ يسلم بالأمر الواقع ويتعايش معه، ولكنها بقيت عاجزة أمام عُقد (أرييه) المتشكِّلة في خزانة الملابس، وتحت السرير، وفي ظلمة الملجأ العمومي، ومهجع الجنود ليلاً. لم يعُد (بوعز) يطيق المكوث في البيت، وصار مغرمًا بمشاوير المشي اليومية، متكئًا على (يوليا). كانت أصابعه تغور في لحم ذراعها عند الاقتراب من زوايا المباني.

نظرية اللعبة

مثل جندي ياباني للتوّ خرج من الأدغال، يُفتش عن ذخيرة لبندقية من زمن الحرب العالمية الثانية، متأهبًا للإشتباك في معركة أُحيلت في غفلة منه إلى التقاعد في كتب التاريخ والمتاحف العسكرية، كنت أمشي في الحياة.

لا شيء في مكانه، العالم يفتقد إلى الترتيب، ينقصه المنطق. كل المسلَّمات تبخرت؛ الأصدقاء و الأعداء، الواجب والممكن، الطبيعي والشاذ، الحقيقة والزيف.

جاهدت طويلاً كي أعتاد على الحياة «منزوعة الثنائيات»، واظبت على ابتداع «مابينيّات» تقيني زمهرير الهباء، وتجعل الحياة قابلة لحد أدنى من الإحتمال فلم أفلح، وهوت روحي في بئر الفراغ.

والحال هذه، لم يكن أمامي سوى أن أقنع ذاتي، بأنَّ كل ما يدور حولي مؤقت، يتأهب للرحيل. مرّت الأيام والمؤقت يتدفق في حركة موضعيّة أمام ناظري، كمياه نافورة تشغلها مضخة كهربائية في ميادين قومي الجديدة.

قلت لنفسي ذات مساء: إنّ الدنيا تتغير وتتبدل، ويبدو أنني تنقصني مهارة التعايش مع الجديد، اتهمت ذاتي المحافظة المقتاته على الحنين إلى الماضي، وقطعت عهداً بتأديبها.. لأرتدّ خائباً بعد حين.

بدأت أشكُّ في وعيي الذي طالما اعتددت به.

قلت: «لا بدّ أنّ من حولي قدّ سبقوني في سباق المعرفة في غفلة مني»، فشمّرت، وبدأت الكَرّة من جديد.. لأنتهي من حيث بدأت. لم أستطع التخلص من شعور رافقني بكوني ضحية خديعة مُحكمة، ولا بدّ لي من سبيل إلى معرفة هذا الشيء الذي يُسمى حقيقة، مع أني كنت قد بدأت أفقد الثقة بالحقيقة، لا لشيء إلا لأنّها بدت صعبة المنال ومعقّدة السبل، فما فضيلة الحقيقة إن لم تكن بسيطة، واضحة، وفي متناول الجميع دون كثير عناء!

الدنيا وقد جنّ جنونها، قادتني للقناعة بأنّ ما أحياه منذ سنين، ما هو إلاّ كابوس ممتد لا يريد الإنتهاء، نعم ما أحياه على حقيقته هو كابوس. انتظرت طويلاً لكي ينتهي، فقد استمر أكثر مما ينبغي.

فقدت «نظرية الكابوس» قوتها التحليلية شيئًا فشيئًا بفعل الزمن، وحان وقت إخضاع النظريّة لاختبار أخير حاسم يمتحنها، قبضت على سكين

فواكه، وغرستها في ظهر كفي، صرخت، وسال دم كثير، وبهذا سقطت نظرية الكابوس، مع أني كنت متردداً بعض الشيء، فللطعنات ألم حتى في الأحلام.

«طبقة الطلاء»، كانت نظريتي الثانية، أنا وكل ما يحيط بي عالق في طبقة من الطلاء، الحياة بطولها وعرضها محشورة في واقع بسمك مليمتر واحد على أحسن تقدير، كل ما تراه عيناي بصخبه وتماديه، لا يتجاوز «الطبقة المليمتريّة». مرّت الأيام، وجفّ الطلاء وصَلُب وبهذا تعزز يقيني، ويقين الناس حولي، بحقيقة «العالم المليمتري»، لا بما هو فوقه وما هو تحته.

قلت في نفسي: «لا بدّ من بقعة قد سلمت من الطلاء، فجريمة بمثل هذا الحجم لا يمكن أن تكتمل».

فَزعّتُ إلى البراري والقفار ألتمس البقعة الناجية.

سكنت نفسي إلى ما هو برّي وقلت: «لم تصل أيادي الطلاة إلى هنا».

فاض عليّ شعور النجاة خدراً لذيذاً داعب أطرافي، وطرد توتري. مددتُ بصري الى الأفق، فتراءت لي الأبراج الشاهقة ذاتها التي أشعرتني دومًا بالريبة تنتصب أمام ناظري من بعيد.

قلت: «إذا أبصرتها من هنا، فهذا يعني أنّ ما أقف عليه محشور في «المليمتر» ذاته، فلو كنت خارجه لما رأيت ما في داخله، لا بدّ أنها فقاعة هواء، قطرها عشر «المليمتر»، عالقة في طبقة الطلاء، تغلّف ما أقف عليه، فمنحتني الشعور بالنجاة». وبهذا أطاحت فرضية الفقاعة بنظرية الطلاء

بالضربة القاضية. مرة أخرى، لم يكن أمامي سوى العودة إلى إتهام ذاتي، وقواي العقلية. قلت: «هي حالة من فصام الشخصية، المشكلة موجودة في رأسي، لا بدّ أنني أعاني من فصام مزمن». منعني كبريائي من التوجه لإستشارة طبيب نفسيّ، وحتى بعدما عالجت كبريائي بجرعة مخففة من البرغماتيّة، التي بدأت تتسلل طلائعها خلسة إلي دماغي في رحلتي المعذبة نحو الحقيقة، إلاّ أنني وقفت أمام معضلة الثقة بالطبيب النفسي، فكيف أتوجس ريبة من المنظومة، وأثق بمن وظيفته الحفاظ على صحتها جيّدة! فانكببت على علم النفس والطب النفسي، نبشتهما نبشًا، وأصبحت عليمًا في فصام الشخصية، وما جاوره من أمراض عقليّة ونفسيّة. ولكنَّ سؤالاً شيطانيًا نبتَ في رأسي ذات مساء: كيف يُمكن لمن يعاني من فصام الشخصيّة، أن يتيقن بأن وعيه بفصامه، ليس إلا من فعل شخصيّة ثالثة، شخصيّة المحلل النفسي، خلقها عقله المُرهق! عندها أكون قد شيّدت عالمًا زائفًا إضافيًا بيديّ هذه المرّة، وألقيت ذاتي فيه بكل قواي الواعية.

وبهذا، انتهت صلاحيّة نظريّتي الثالثة بسرعة، ولم تصمد طويلاً، وبنهايتها وصلت علاقتي بالعلوم إلى طريق مسدود، فقد بدا لي، أنّ كل معرفة أستجير بها، تُشيّد وهمًا آخر أعيش فيه مطمئنًا إلى كيد المعرفة الناعم.

ما إن بدأت بالتخفف من المعرفة المسطورة، حتى بدأت قدرات حواسّي تتضاعف وتتضاعف... صرت أسمع ما لا يُسمع، وأُبصر ما لا يُبصَر، وصار وعيي بالعالم يتخذ شكل دفقات كهربائية، وكانت المسألة، مسألة وقت ليس إلا، قبل أن أصل إلى نظريّة «العالم الإفتراضي».

لِمَ لا تكون الحقيقة أنني أعيش في «عالم افتراضي»، دخلت بوابته من إحدى الألعاب الالكترونية التي كنت مدمنًا عليها، وأنا الآن عالق فيه؟

فرحت بنظريّتي الجديدة، إذ بدت لي أكثر ثوريّة من سابقاتها، وللحقيقة، فقد تَمكَنَت مني لثوريّتها لا لمنطقيتها، وهي الثنائيّة التي سأكتشف زيفها، عندما سأقف حائرًا، أتصبب عرقا، أمام البوابة الزجاجيّة في القادم من الأيام.

صرت أجول وأصول، وابتسامة لا تفارقني، فأنا أعلم الآن، حقيقة زيف كل ما يحيط بي، ما هو إلاّ سلاسل لا تنتهي من الرقميّات. مضت أيامي باسمة... إلى أن أُصبت بإلتهاب في العضلات الوجيه، سببه على الأغلب مداومة شدّها لدواعي التبسُّم. ألزمني المرض بيتي لأيام ثلاثة، ندمت في اليوم الأول على تهوري بإلقاء جهاز التلفزيون من النافذة بعد إيماني بنظرية الواقع الإفتراضي. منحتني الخلوة الإجبارية الفرصة لعمل مراجعة سريعة، وضحكت إلى أن انقطع نَفَسي عندما تنبهت إلى أنّ الأثر الوحيد الملموس لمعرفتي بحقيقة ما يدور حولي.

قلت في نفسي: «إذا كنت عالقا داخل لعبة، فلكل لعبة نهاية، إن بلغتها، تحررت منها».

بعد أن تعافيت، شمرت عن ساعديّ، وأنهيت كل مراحل اللعبة، ووصلت إلى البوابة التي تدل عليها عبارة «GAME OVER».

خرجت منها، وحمدت الله على سلامتي... ولكنّ فرحتي لم تدم

طويلاً، فالواقع الذي خرجت إليه، لم يكن إلاّ نسخة طبق الأصل من الواقع الذي جاهدت للخروج منه. حافظت على برودة أعصابي، ولم أجزع.

وقلت في نفسي: «على ما يبدو أن اللعبة لم تنته بعد، لا بدّ أنّ مصمم اللعبة أرادها أن تكون الخدعة/ المرحلة الأخيرة، فألعاب الفيديو الأمريكية، من الجيل الخامس، أصبحت معقدة وماكرة».

لتستمر المواجهة إذن. ولكن، ماذا لو أنّ اللعبة لا نهاية لها! تُنشئ المراحل اللاحقة من المراحل السابقة، بناءً على ما تتعلّمه من لعبك!. وقفت هنا أمام خيارين: إمّا أن أواصل اللعب، أو القبول بحقيقة المراحل اللانهائية، قلّبت الأمر، ومن ثمّ نهضت، حسمت خياري سريعًا، فلتستمر المعركة، فما الذي أفعله بالكتلة المتفجرة هذه التي أحملها في داخلي، إن لم أقذف بها في معركة ما! إذا لم تنفجر خارجي إنفجرت داخلي، وكنت أنا ضحيتها الوحيدة، إنها لمُضيّعة هائلة للطاقة.

وبدأت اللعبة من جديد..

زادت تحديات اللعبة تعقيدًا، وانتبهت الى أنّ أمزجة من حولي قد تكدّرت، ولم يعودوا يبادلونني الابتسامات، كما في المرحلة السابقة. صرت أشعر بأنني مراقب في كل تحركاتي، استخدمت كل فنون التمويه، وتقنيات الإفلات من المراقبة المعروفة لدي، ولكن دون جدوى، فكل تحركاتي كانت متوقّعة. إنني الآن في مواجهة كائنات رقمية ذكية، تتعلم من تحركاتي وتسبقني دائمًا بخطوة. لم تعد التحديات تنتمي إلى عالم

المعرفة والمنطق فقط، وبدأت تظهر عقبات تحتاج الى جهد جسدي، قلت في نفسي: هذه معركة من نوع جديد لا ينفع معها تكتيك المراحل السابقة، مررت بلافتة مكتوب عليها« "THINK OUT OF THE BOX"»، لقد جاءت في وقتها، لا بدّ أنها هنا لمساعدتي، وضعها المبرمج لضمان حد أدنى من النزاهة في اللعبة. فلأفكر خارج الصندوق إذن.

بدأت بعملية مسح منظم لعقلي، ولكني سرعان ما وصلت إلى سؤال الحدود: حدود داخل الصندوق وخارجه، أنهكني التفكير، وقلت: هي معركة حياة أو موت، ومعها لا ينفع إلاّ وعي محارب، عاودت المرور أمام اللافته، كانت الكائنات الرقمية تمر من أمامها ولا تلقي لها بالاً، قلت: هي خديعة اختزال المتعدد في واحد، فمن يقفز من صندوقه لا بدّ له من الهبوط داخل صندوق جديد، وهكذا سيجهدك القفز يا فتى، إلى أن تُنهك، وتعجز عن القفز، فتستقر في صندوق الخيار الأخير، ولكنّه في الحقيقة ليس خيارك. فالتحدي إذن ليس تبديل الصناديق، وإنما أن تصنع صندوقك بنفسك، فتُدَرِعَه، وتُدببه وتحوله إلى كاسحة ألغام، وتخوض به معركتك الوجودية.

وقفت أمام بوابة زجاجية أنيقة، لا تفتح إلاّ بعد أن تُحلّ الأحجية التي تظهر على الشّاشة فوقها، وما أن قدمت الإجابة، حتى ظهرت على الشّاشة عبارة «مغالطة منطقيّة» بجوارها ساعة رملية، وبدأ مؤشر الحياة يتناقص بتناقص الرمل في حجرتها العلوية ٩٩٪ . . . ٩٥٪، ركّزت . . . وحشدت كل ما أعرفه في علم المنطق وقدمت الإجابة الثانية . . . لتظهر عبارة «مغالطة

تحليليّة » وصل معها مؤشر الحياة إلى ٧٥ ٪ ، صرخت : «يا إلهي، ما هذه الأحجية التي تدفع ثمن محاولة حلّها من حياتك !» .

حان وقت تغيير قواعد اللعبة برمتها، استجمعت قواي وحقدي على هذا العالم الإفتراضي، وركلت البوابة بقدمي، فتهشّمت، وعبرت إلى مرحلة جديدة، والأحجية على حالها لم تُحَلْ .

زاد تجهم الكائنات الرقمية، وأصبحت أكثر عدائية، حتى طيور الحمام صارت مناقيرها فولاذية تلمع تحت الشمس، وترقبني بنظرات حادّة، وبدأت تظهر في الممرات كاميرات مراقبة، وأصبحت خطوات المخبر، الذي يتبعني كظلي، تكاد تتعثر بخطواتي . واصلت المشي في الممرات، التي بدأت إنارتها تخفت شيئًا فشيئًا . وقفت أمام البوابة الثانية، على جوانبها مجموعة من الأشكال الهندسيّة، طُلب مني أن أرتبها ضمن مصفوفة ثلاثيّة لكي تفتح البوابة، ركلت البوابة لكنها لم تفتح، ركلتها ثانية وبقيت على حالها، اتهمت قواي وحقدي على المنظومة، تراجعت وحدّقت في الأشكال الهندسيّة، وعبثًا كانت كل محاولاتي لترتيبها . عَلقَت صورة المربع الأوسط ببصري . . . انتبهت إلى علبة بلاستيكية مربعة مموهة، تخرج منها وصلات كهربائية، مثبتة على الجدار بجانب البوابة الأيمن .

قلت: «لا بدّ أنها تحتوي على لوحة التحكم بالبوابة» .

هممّت العبث بها، ولكن، بدا لي هذا السلوك متوقّعًا مني، ومن المرجح أن تكون العلبة مفخخة، نظرت حولي فوقعت عيناي على برميل

معدني، حملته . . . وألقيته على العلبة، فانفجرت العلبة . . . وفُتحت البوابة. عبرت البوابة، ووقع أقدام تتجه نحوي من كل صوب . . . إنها مرحلة ال zero-tolerance إذن. راوغت . . اختبأت خلف إحدى الزوايا وراقبت الممر الطويل، فإذا بالمخبر، صار يحمل مسدسا، كَمنتُ له، وما أن مرّ بمحاذاتي، حتى فاجأته بلكمة أسقطته أرضًا . . أخذت مسدسه، وما إن التفّت أصابعي على مقبض المسدس حتى انطلقت صافرات الانذار تدوي، وبدأ جنود مدججون بالأسلحة يطاردونني، مستعينين برادار يُظهر تحركاتي على شاشته الخضراء . عليّ أن أجد طريقة تُخفيني عن شاشة الرادار وإلا هلكت، مسحت المكان بعيني، مرة تلو المرة، ولكن دون جدوى.

زاغ بصري..

أغمضت عيني لأستعيد تركيزي البصري، وإذ بي أكتشف مقدرة لم أكن أعلم أنها ممكنة عند البشر، قدرة تحريك أذني، وبحركة لا إرادية توجه صيوان أذنيي نحو الأسفل، وإذا بصوت خرير قادم من تحت قدمي، انبطحت أرضًا، وألصقت أذنّي بالأرض، وصرت ألاحق صوت الخرير الذي بدأ يشتدّ شيئًا فشيئًا إلى أن وصلت غطاءً معدنيًا مستديرا، رفعته ونزلت من فتحة اسطوانية إلى تحت الأرض، لأجد نفسي في نظام الصرف الصحي، يجري فيه سائل فسفوري مشع.

قلت: «لا بدّ أن السائل يعلق بالأقدام ليمكّن العسس والجنود من تتبع خطوات من يرتادون عالم تحت الأرض».

مشيت... ومشيت إلى أن توقف صوت قرع نعال الجنود فوقي. بدأت أفتش عن مخرج من العالم الفسفوري المطمور. وقعت عيناي على سلّم حديدي ينتهي بفتحة دائرية كالتي دخلت منها، تسلّقت السلّم وخرجت من شبكة الصرف الصحي. خلعت حذائي المُشع، وألقيته في داخل الشبكة قبل أن أغلق الغطاء المعدني الثقيل.

بدأت بالركض باتجاه البوابة الثالثة، التي هجست أنها البوابة الأخيرة. لم تكن البوابة تحمل شاشة بأحجية كسابقاتها، وإنما كانت بوابة صماء من المعدن الثقيل المصقول بعناية فائقة، وقفت أمامها حائراً، تفحصتها مرات عدة، وبعد كل مرة كانت قناعتي تزداد باستحالة تجاوزها، إبتعدت عنها... وأطلقت رصاصتين عليها من مسدس المخبر، عادت طلقاتي إلي وكادت تقتلني.

إنه فخ النيران الصديقة...

كمنت بالقرب من البوابة ألتقط أنفاسي وألملم شتاتي... وإذا بالبوابة تفتح من تلقاء ذاتها، ويخرج منها جندي ضخم البنية، يحمل رشاشًا متعدد السبطانات، يتجه نحوي بسرعة... فتح النار عليّ، انهمرت الرصاصات حولي، وأصبت بخدش في كتفي، تراجع مؤشر الحياة إلى ٧٥٪... تسلّقت الجدار خلفي بيسر، مكنتني منه قدماي الحافيتان، تشبثت بنتوء في الجدار، وكمنت للجندي فوق رأسه... أطلقت رصاصة واحدة في وسط جمجمته فأرديته قتيلاً... وقع مدفعه بجانبه وتناثرات حوله عبوات الطاقة، تناولت كل عبوات الطاقة ليصبح مؤشر الحياة يشير إلى ١٠٠ ٪.

حملت المدفع الرشاش وتابعت زحفي في الممرات والأزقّة، يدي مطبقة على الزناد، وأنهار من «الأدرينالين» تجري في عروقي.

فجأة زالت الغرابة عن المكان وعادت كل تفاصيل المكان مألوفة لي حدّ الجنون. قلت في نفسي: يريد مبرمج اللعبة أن يقضم بالألفةُ حسيَّ الأمني، زدت من درجة تأهبي الى ما بعد الدرجة القصوى، فقد علمتني اللّعبة أنّ لكل درجة قصوى ما بعدها. أطلّ جنديّ مألوف الملامح من على شرفة منزلي، ارتبكت لبرهة... فما الذي يفعله هذا الجندي في منزلي؟ ومن ثمّ صوّبت نحوه مدفعي الرشاش، ومزّقته. لقد بدأ الإشتباك عالي الوتيرة، لا بدّ أن يكون هذا الجندي هو طليعة خط الدفاع الأول عن البوابة الأخيرة، زحفت بحذر إلى مكان سقوطه، وجمعت عبوات الطاقة التي تناثرت حول جثته. من نافذة بيت جيراني ظهر جندي ثان، لم يحمل سلاحًا ولكنه حدّق فيّ ملوّحا بإصبعه الوسطى، لا بدّ أنّ المبرمج الأمريكي يتوقع من عربي مثلي أن لا يحتمل هذه الإهانة، فيطلق عليه صلية مجنونة تستهلك ذخيرته وتدل على موقعه، رددت التحيّة بمثلها، وانسحبت بسرعة إلى مكان آمن. جلست أرتب أفكاري وأتعرف بنشوة على سلاحي الجديد، مرّت أحداث حياتي أمام عيني كشريط سينمائي سريع، لكنه توقف في نقطة ما قبل النهاية، وفي مرحلة ما لم أعد متيقنا إذا ما كان العالم الذي أنا عالق فيه ينتمي إلى الحقيقة أم إلى الخيال.

باغتتني طائرة بدون طيار، وبدأت تحوم فوق رأسي، وانهمرت حولي نيران الجحيم. لقد وقعتُ في فخّ الشعور بالأمان. كان ضباب

الموت يلفني، لم أرد لنهايتي أن تكون اغتيالاً آخر بل أردتها مواجهة، بدأت باطلاق النار باتجاه الطائرة مستعينًا بخيط الدخان الذي تتركه قذائفها الصاروخيّة خلفها.

بدأ مؤشر الحياة يتراجع بسرعة الضوء، وبالسرعة ذاتها انهارت قواي... سقطت ورأيت العالم وقد تلون بصباغ أحمر.

فقدت الوعي... ولم أصح إلاّ على أصوات هتافات غاضبة، وإطلاق نار كثيف، لم أعرف ما الذي يدور حولي، وما سرُّ صوري تملأ الجدران! كان كل شيء مثيراً للحيرة، لكنّي كنت متيقنًا من شيء وحيد، أني قد وصلت إلى نهاية اللعبة الأمريكية.

صَدَحت مكبرات الصوت معلنة إنتهاء استراحة الغداء... طوى نضال صفحة الرواية على شكل مثلث لامسَ رأسه حرف العين في كلمة اللعبة في جملة «أني قد وصلت إلى نهاية اللعبة الأمريكية»... وضع الرواية تحت إبطه، وتوجه مسرعا إلى موقعه بائعًا للكتب على الرصيف في «مدينته» التي أقامها الجيش الأمريكي في قاعدة «فورت إروين» لتدريب جنوده على أعمال الدورية ومكافحة التمرد في المجتمعات الشرق أوسطيّة.

عائدٌ إلى يافا

إنه الخامس عشر من أيَّار . .

إنه الخامس عشر من أيَّار من جديد، عمّا قريب تبدأ طقوس إحياء ذكرى النكبة، التي أصبحت تصيب (حمادة) بضجرٍ قاتل. يقوم الجدّ بإخراج محتويات صندوقه العتيق بعناية جرَّاح.

«كواشين الطابو»(*)، مفتاح البيت، وإيصالات تسديد الرسوم البلديّة. يُوزعها على الطاولة بترتيب لم يتبدل منذ تفتح وعي (حمادة)، أقرب الأحفاد إلى قلب جده، منذ ٢٣ عامًا على معنى النكبة. «الكواشين» وسط

(*) سند ملكية الأرض أو البيت.

الطاولة، وإيصالات البلدية على يمين الجد، والمفتاح على يساره. يتفقد الجد الأحفاد والأبناء، ليتأكد من حضور الجميع، وإكتمال نصاب الطقس، ثمّ يبدأ بسرد حكاية الخروج من يافا..

قذائف «الهاجاناه»، «اللنشات» الهائمة على وجه المتوسط في جحيم نيسان، الوصول إلى بور سعيد، الصدام مع الشرطة المصرية في المزاريطة الإستقرار في القاهرة، ومن ثمّ تأريخ سريع للوعود والهزائم والآمال والتحولات.

سَرَدَ الجد النكبة بكلمات مشتعلة، أبطأت الأعوام الستون من إيقاع السرد، لكنها لم تفلح في الحدّ من قدرته على إيقاد النار في الكلمات. ينهمك الأحفاد باللعب على أجهزتهم الخلوية بانتظار أن تصل حكاية النكبة إلى خاتمتها بوصيّة العودة إلى البيت والبيّارة، لا يمنعهم من مغادرة مجلس الحكاية سوى الإشفاق على الجد الذي لم يتبق له في هذا العالم سوى انتظار الخامس عشر من أيّار، ليسري في عروقه يخضور الحكاية، ولتبدأ أيامه بالذبول تدريجيا بعده.

ذابت كلمات الجدّ في الأثير، لكنها كانت تدفع (حمادة) كل عام، شيئًا فشيئًا إلى تخوم ذاته المتشكلة في لظى النكبة.

وفي لحظة وعيٍ مغامر، بدأ (حمادة) يُقشِّر عن ذاته، «فلسطينيّتَهُ المنكوبة»، مثل برتقالة يافيّة وافية النضج في حكايات جده عن الفردوس المفقود.

كان (حمادة) وهو يُقَشِّرُ «فلسطينيته»، يقشِّر في الوقت ذاته، صُهيونيةً خفيّةً مجدولة معها، فقد كانت فكرة «إسرائيل» قد تجوهرت خلايًا عصبيةً

في عـــادات الفكر للذهن المكلوم لا تُمَكِّن الوعي إلا أن يكون ضـــده، فتحولت العودة إلى كل ما هو ضدها، فمن عادات المغلوبين أن ينزعوا إلى التجريد بعد أن يصلوا في الترميز إلى طريقٍ مسدود.

لم تعد العودة في جهاز (حمادة) الإدراكي الجديد مفتاحًا صدئًا، «كوشان طابو»، شعرًا عموديًا أو حرًا، فنًا تشكيليًا، حفل خطابة، صورًا بالأبيض والأسود، إحصائيات وأرشيف «الأونروا»؛ وإنما دفعه عقله العلمي الصارم، ونفوره من ألاعيب المجاز إلى تعريف العودة «بعلم وتقنية عبور الحدود»؛ أنواع الأسلاك الشائكة، أجهزة الرصد والمراقبة، جداول الدوريات، أدوات الحفر والقطع، فن تمويه آثار الأرجل، معرفة أدلاء الطرق ونقاط التهريب وفراسة الخيانة من نظرات العيون.

استحوذ عبور الحدود على (حمادة) اليافيّ، فلسطيني الأب مصري الأم، وصار العالم أمام عينيه حدودا تنتظر أن تُعبَر.

وذلك منذ أن التقى (حمادة) بعابري الحدود في نشرات الأخبار، والريبورتجات، وأحاديث المقاهي في أحياء القاهرة عن قوافل السودانيين والصوماليين والإرتريين والنيجيريين العابرين لصحراء سيناء، لينتهي الأمر بغالبيتهم إلى الخيام المنصوبة في «حديقة ليفنسكي» في «تل أبيب»، التي تبعد ٢ كم عن موقع البيت الذي ما زال جده يحتفظ بمفتاحه، على ما تشير إليه خرائط «غوغل».

كان (حمادة) يخرج، شيئًا فشيئًا، «فلسطينيته» المُتَشَرنِقَة ويتحول الى إفريقي عابر للصحراء.

عَبَرَ (حمادة) الإفريقي الأسلاك الشائكة بيسر، ومن المحاولة الأولى، بمرافقة (سالم) البدوي، ابن قرية المهدية التي تعتاش على تهريب البشر إلى «إسرائيل».

كان (سالم) يتلقى تعليمات وإرشادات العبور عبر جهاز «الثريا» من ابن عمومته (نايف السبعاوي)، الجندي السابق في وحدة قصاصي الأثر البدو في الجيش «الإسرائيلي»، على الجهة المقابلة من الحدود، أوصله سالم إلى مخبأ تحت شجرة أثل، وقام بلفه بورق القصدير كمومياء لئلا تلتقط حرارة جسده كاميرات التصوير بالأشعة تحت الحمراء المثبتة على دوريات حرس الحدود «الإسرائيلية».

مرت ساعتان قبل أن تهدأ حركة الدوريات.

ناداه (نايف السبعاوي) بصوت خفيض ليخرج من مخبأه، ومن ثمّ أركَبَه خلفه على جمل أسود اللون، مازحه نايف:

«هذا الجمل مزود بجهاز GPS لا يخطئ، ولا يمكن التشويش عليه».

مع ساعات الفجر الأولى، كان (حمادة) بصحبة (نايف) في سيارة جيب مركونه على جانب شارع رقم ٦، لتبدأ المرحلة الأخيرة من رحلة العودة إلى يافا، يافا التي لم تعد تعني (لحمادة) بيارة البرتقال وشرفة تطل على البحر، وإنما ذلك المكان الذي يُمكّنه من التحديق عن قرب في هشاشتهم التي غَلَبت هشاشتنا.

صديد

كانت الأشهر التسعة التالية لرفع اسمه عن قائمة المطلوبين لجهاز «الشّاباك»، أشبه بورشة عمل محمومة؛ قام خلالها بإعادة تأويل منظّمة لمعالم المرحلة السابقة، مرحلة العمل الثوري السري، فبمجرد خروجه للتسكع ليلاً في شوارع بلدته المُنارة حديثًا، كانت تجتاحه رَغبةً جامحةً في المراجعة والإعلان عن بدايات جديدة.

القبو السري كان الشيء الوحيد المتبقي من معالم المرحلة السابقة، والذي بقي إلى الآن، بعيداً عن حمى إعادة التأويل والكشف.

كان القبو عبارةً عن غرفةٍ مربعة الشكل مشيدةٍ من الخرسانة، عُزِلَت

جدرانها من الداخل بطبقتين متتاليتين من الجبس، يفصل بينهما الصوف الصخري لضمان أكبر قدر من العزل عن العالم الخارجي.

أما مدخل القبو، فيبدأ بفتحة مموهة تحت الثلاجة في أرضية المطبخ، تتصل بنفق بطول ثلاثة أمتار يؤدي إلى القبو.

بعد أن سلّم «بيكاسو»، الاسم الحركي الذي اكتسبه (وسيم) لمواهبه الفنية المتعددة في الرسم والنحت والتجميل، كلَّ محتويات القبو من متعلقات العمل السري للأجهزة الأمنية، لم يتبق في القبو إلا صندوقًا خشبيًا يحتوي على خمس ساعات منبّه ماركة «سيكو»، كانت تستخدم في تجهيز العبوات الناسفة، وتشكيلة من الألوان الزيتية والأصباغ والدهانات المستخدمة في تمويه العبوات الناسفة، بالإضافة إلى حقيبة سوداء مليئة بأدوات ومساحيق «الماكياج» والشعر المستعار، كان (وسيم) يستخدمها للتنكر وتغيير ملامحه أثناء تنقله، عند اضطراره للخروج من القبو في المهمات النضالية. تربّع الصندوق ببرود في وسط القبو كنصب تذكاري يحتفي بالبطولة ليعلن نهايتها، ويحيل الذاكرة إلى تاريخ.

لم يصمد القبو طويلاً أمام غواية المراجعات والكشف، فذات ليلة وفي نهاية جلسة احتدم فيها النقاش حول نقد التجربة الفنيّة الوطنية، والعلاقة ما بين السياسي والجمالي، وُلدَت فكرة تحويل القبو إلى «جاليري» في ذهن «بيكاسو»:

«لتأخذ العلاقة ما بين السياسي والجمالي بعداً أكثر عمقًا، بما يُضفيه مكان العرض على العمل الفني» .

«جاليري الثورة» كان الاسم الذي إختاره (وسيم) للقبو، وفي صبيحة اليوم التالي كان حديث الليل قد تحول نهاراً إلى معاول ومطارق، وبنشوة البدايات الجديدة، وعلى ألحان (مارسيل خليفة)، بدأت عملية إزاحة التراب عن الجدار الشرقي للقبو، ومن ثُم انهالت المطارق على الجدار لعمل فتحة فيه لتكونَ مدخله الجديد بديلاً عن النفق، كان الجدار الإسمنتيّ يتداعى بسرعة مذهلة، لعلّه الفعل السحري لتَبَدُّل أسماء ووظائف الأشياء .

وهكذا، أصبح للقبو السري لافتةٌ تدلُّ عليه من بعيد، بعدما تحّول إلى «جاليري الثورة» . . . وقع اختيار (وسيم) على ساعات المنبّه الخمس كمادّة خامٍ لعمله الفني التدشيني «للجاليري»، وبعد يومين من العمل والتجريب الفني، وتحت غواية مدارس ما بعد الحداثة الفنية، التي طغت على نقاشات المهتمين بالنقد وبالتجديد الفني في بيته، وُلد «عَبَث»، الاسم الذي أطلقه (وسيم) على عمله الفني الخالص الأول. كان «عَبَث» استعراضًا سمعيًا بصريًا مكونًا من الساعات الخمس، المُثبتة بشكل دائريٍّ على لوح زجاجي، والتي عَبَثَ (وسيم) بمسنناتها مُجبراً عقارب كل ساعة على الدوران بعكس اتجاه عقارب الساعة التي تسبقها في الترتيب، وبهذا تكون محصلة الزمن في الساعات الخمس تساوي صفراً دائمًا .

توالت ابداعات (وسيم) الثوريّة، وتحول الجاليري مع الأيام إلى مَعلمٍ سياحي يجذب الفنانين الثوريين والنقّاد المهتمين بالفن المعاصر، بالإضافة إلى المتضامنين الأجانب المشاركين في المسيرة الاسبوعية لمقاومة الجدار بالقرب من بلدته.

بدأت علاقة وطيدة تنشأ ما بين (وسيم) والكاميرا، فكل زيارة «للجاليري» كانت تنتهي بصورة تذكارية للمكان والفنان، ومع كل ومضةً لفلاش الكاميرا كانت ذكرى ذلكَ المساء التشريني تقفز إلى ذاكرة (وسيم)، عندما اتخذ قراره المصيري حينها بالنزول تحت الأرض والإختفاء، فقام بحرق كل صوره الشخصية كإجراءٍ امنيٍّ احترازيّ.

في غمرة أضواء النجوميّة، كانت بثور وردية، ذات رأس يميل إلى الحمرة، تغزو ببطئ وجه (وسيم)، لم يُعرها اهتمامًا يُذكر في أوّل الأمر، إلى أن بدأت البثور تتحول إلى الحمرة الداكنة، وأخذت تتشقق ويسيل منها سائلٌ مائلٌ إلى الصفرة. ذُعر (وسيم) وهو يرى خيوط السائل الأصفر تتكاثر وتتقاطع على وجهه، فهرع إلى طبيب الجلد الذي شخّص الحالة «بتهيّجٍ شديد أصاب النهايات العصبية في بشرته، مُرَجِّحًا سبب التهيج إلى تحسسٍ من أشعة الشمس المباشرة والأضواء الساطعة، ورِثَتْهُ بشرته من سنوات الاختفاء الطويلة».

كانت البثور تجتاح وجه (وسيم) كأنها احتجاج عنيف للجسد على تحولات الروح، وأجبره السائل الأصفر على الاختفاء مدة أسبوعٍ كاملٍ

قضاه في علاجٍ مكثف، إلى أن بدأت البثور تُوقف نفثها للسائل الأصفر، وتتحول شيئًا فشيئًا إلى بقعٍ سوداءَ خشنة تُغطي غالبية وجهه. لم تنفع كل المراهم والغواسيل في التخفيف من حدة البقع السوداء فضلاً عن إزالتها.

أجبرت صورة الوجه الدميم، التي كانت تظهرُ أمام عيني (وسيم) كلما نظر في المرآة، العودة الى التنكر وتغيير الملامح من جديد، ولكن هذه المرة لإخفاء بعضٍ من البقع الداكنة، ولدمج البعض الآخر في تضاريس وجهه الجديد.

O.C.D

للمرّة الأولى منذ سنين، تجاهل العقيد تعليمات طبيب القلب المشدّدة المتعلّقة بصعود درج العمارة، صاعداً إيّاه درجتين.. درجتين، وما إن فتحت زوجته باب الشّقّة، حتّى فاجأها بعناقٍ كاد يخنقها، مُبشراً إيّاها بصوتٍ يرتعش فرحًا:

«منذ اليوم، أنا المسؤول عن الجانب الفلسطيني في جهاز الارتباط والتنسيق الـ«O.C.D».

في تلك الليلة نام العقيد باكراً، دون أن يلتفت إلى إيماءات زوجته المتعددة، طمعًا منها في إستثمار نشاط الدورة الدموية للعقيد داخل المنزل.

في الصباح، استيقظ العقيد باكراً . .

توجه إلى الحمام، وأخذ «دوشًا» فاركًا جسده بصابون «جونسون» المعطر برائحة زهرة الأكاسيّا .

وقف أمام المرآة مستعرضًا عضلاته المفتولة . متفحصًا، بشكلٍ مبالغ فيه، عضلة «الترايسبس» . شَذَّب شاربيه حلق ذقنه بعناية فائقة مستخدمًا ماكينة «جيليت» من الجيل الثالث التي ابتاعها البارحة على شرف المناسبة . نتف بعضًا من شعر حاجبيه، وعالج ذقنه برشات مكثفة من عطر «أولد سبايس» الذي أدمنت عليه مسامات جلده منذ أن دخل السوق الحرة لأول مرة في تونس بعد الخروج من لبنان . ارتدى بزّته العسكريّة ذات الأزرار الذهبيّة، لمّع حذاءه، وتوجه إلى مكان عمله الجديد .

على مدخل مكتب الارتباط والتنسيق، كان بانتظاره الضابط (سفيكا) مبادراً بالتحيّة :

«صباح الخير، أهلاً وسهلاً بك في مكتب الارتباط والتنسيق، أقدم لك زميلي كابتن (جاي) .

مدّ العقيد يده مصافحًا (سفيكا)، ثمّ التفت لمصافحة (جاي)، برق أمام عينيه وشم نجمة داوود زرقاء اللّون يتوسّطها عقربٌ أسود على ذراع الكابتن (جاي)، فَسَرَت في جسده قشعريرة عنيفة بعثرت أعضاءه، ولمعت حبّاتٌ من العرق على جبينه . قاد «سفيكا» العقيد في جولة لتعريفه على تفاصيل المكان، وإجراءات الأمن المتّبعة . كان العقيد خلالها يوزّع ابتساماتٍ فاترةً على موظّفي مكتب الارتباط والتّنسيق .

رجع العقيد إلى البيت منهك القوى، وما إن دخل الشّقّة، حتّى أسرع الى حجرة النّوم موصداً الباب خلفه، مخيّبًا آمال زوجته لليلة الثانية على التوالي. ارتمى على السّرير مشعلاً سيجارة.

فجـأةً، انقلبت حيـاته رأسًا على عقب، وتبدّد الفرح الغامر كالرّمل من بين أصابعه، وابتلعته حالةٌ من الغثيان أحالته جثّةً هامدة، وأطبق عليه صداعٌ رهيب:

هل هو (مـارتين)؟!... هل من الممكن أن يكون (جـاي) هو نفـسـه (مارتين) كابتن «الشّاباك» الّذي تولّى التّحقيق معه في مركز «بيتح تكفا» قبل ثلاثين عامًا؟ وهل الوشم مجرّد صدفةٍ لعينة؟

لم تكن ندوب «بيتح تكفا» قد اكتمل التئامها بعد، وخاصّةً تلك الّتي تشكّلت في ساعات ما قبل فجر اليوم الثّامن من التّحقيق، عندما اغتصبه (مارتين) بهراوةٍ بلاستيكيّة سوداء، وهو يطوّق عنقه بذراعه الّتي تحمل ذلك الوشم اللّعين.

ثلاثون عامًا حملت الأيّام فيها العقيد من معتقل نفحة إلى بيروت بعد صـفـقـة تبـادل الأسـرى مـرورًا بتـونس، وصـولاً إلى رام الله بعـد أوسلو. خلّفت هراوة (مارتين) ندوبًا غائرةً في جسد وذهن العقيـد، طمرها تحت طبقات عدّة من الحيل النّفسيّة والكتمان الصّارم، آملاً أن تُطوى صفحتها إلى الأبد، لكنّها لعنة التّاريخ الشّخصيّ، الّذي يكمن كلغمٍ أرضيٍّ منسيٍّ من مخلّفات حربٍ غابرة، تأتي عاصفةٌ هوجاءُ فتزيح عنه ركام السّنين، وتُجدّد فيه القدرة الهائلة على الفتك.

هناك، وإلى ذلك المكان من جسده الّذي مزّقته هراوة (مارتين) انتقل كلّ نشاط جهازه العصبيّ والذّهنيّ، لتتكثّف حياة العقيد في تلك «الفتحة النّازفة» الّتي تصالح مع آلامها الدّوريّة معزّيًا ذاته:

«كلّ شيءٍ يهون لأجل عيون فلسطين» الّتي كان قد حفرها في ذهنه وهو يرقد على سرير المشفى في ألمانيا الشّرقيّة. كان للمقولة فعلٌ تخديريٌّ خارقٌ استمرّ لسنوات طويلة، إلى أن بدأ يتلاشى عندما فُقئت عيون فلسطين في أوّل لقاءٍ جمع العقيد مع ضبّاط الجيش الإسرائيليّ في أريحا لتنسيق تسلّم رشّاشات الكلاشنكوف بعد فحصها وترقيمها.

بعد أن لدغ العقرب، الموشوم على ذراع (جاي)، العقيد للمرة الثانية، فقدت المقولة آخر ما احتفظت به من فاعليّتها التّخديريّة السّحريّة، ولم يبقَ للعقيد سوى مراهم معالجة البواسير والإيبوبورفين عيار ٨٠٠ علاجًا لجرحه النّازف، ورجولته المهتوكة.

في تلك اللّيلة الطّويلة أصبحت كلّ الاشياء اسطوانيّة الشّكل وداكنة اللّون..

هراوة (مارتين) شمّاعة الملابس، هراوة (مارتين)، علبة رغوة الحلاقة هراوة مارتين، قارورة مياه (جريكو)، هراوة (مارتين). حاصرت الهراوات العقيد وهو يتقلّب في فراشه، إلى أن صدح صوت المنبّه من جهازه الخلويّ.

نزل العقيد متثاقلاً من السّرير، توجّه إلى الحمّام وأخذ «دوشًا» فاركًا جسده بصابون «جونسون» المعطّر برائحة زهرة الأكاسيّا، ثم وقف أمام المرآة دون أن يستعرض عضلاته كعادته، حلق ذقنه بعناية فائقة مستخدمًا ماكنة «جيليت» من الجيل الثّالث، نتف بعضًا من شعر حاجبيه، وعالج ذقنه برشّات مكثّفة من عطر «أولد سبايس» الّذي أدمنت عليه مسامات جلده منذ أن دخل السّوق الحرّة لأوّل مرّة في تونس بعد الخروج من لبنان.

ارتدى بزّته العسكريّة ذات الأزرار الذّهبيّة، لمع حذاء، تناول قرصيّ إيبوبورفين عيار ٨٠٠ وتوجه إلى مكان عمله.

سوبرغلو

(راضي محمود) ملتزم جادّ وعنيد بقضايا التحرُّر الوطني والعدالة الاجتماعية..

لم يترك نظريّة في الانعتاق والثورة والتحرر والمقاومة، إلا ودرسها ولخصها ووضع ملاحظاته وشروحه على هوامشها. تحوّل (راضي) إلى موسوعة متحركة في الاغتراب والثورة والأيديولوجيا والنقد وطبائع الرأسمالية والاستعمار وما بعد الاستعمار والطليعة والمثقف العضوي والالتزام والتطبيع، وكل ما له صلة من قريبٍ أو بعيدٍ بالقضايا النظرية والمنهجية للتحرُّر الوطني والعدالة الاجتماعية.

لم يكن (راضي محمود) ممن يفصلون النظرية عن الممارسة، فحرص أن يكون دائمًا في الصفوف الأولى للندوات والوقفات والاعتصامات والحفلات والمسيرات والمحاضرات والاحتجاجات. وكان، بعد كل نشاط نضالي، يرجع مساء إلى مكتبته التي تضخّمت، شيئًا فشيئًا حتى زحفت الكتب وغزت غرفة الجلوس، وخزائن المطبخ، ورفوف البهارات، وفوق الثلاجة، وخزانة الأدوية، وطاولة الطعام، وفوق التلفزيون وتحته، وتكدّست في الممرات وصولاً إلى الحمَّام، فقد كان (راضي محمود) يحرص ألاّ يضيّع دقيقة واحدة دون أن يستغلها في تثقيف نفسه حتى أثناء قضائه للحاجة.

حدث ذلك ذات مساء، عندما عاد (راضي) مبحوح الصوت من مسيرة حاشدة، وأسرع إلى مكتبته لإكمال قراءة «نقد العقل الجدلي» لسارتر. حمل (راضي) الكتاب، وتوجَّه إلى المطبخ ليحضّر فنجانًا من اليانسون المحلّى بالسكر الفضي، لتهدئة أعصابه ولعلاج بحّة صوته.

حمل (راضي) إبريق اليانسون الساخن، وتوجه إلى غرفة المكتبة واضعًا الكتاب تحت إبطه، وما إن همّ بالجلوس حتى إنزلق الكتاب وسقط على الأرض، فانفصل غلافه عنه.

بحث عن مادة لاصقة ليعيد تثبيت الغلاف، (فراضي محمود) حريص جدًا على كتبه، وجد علبة الغراء المخصصة لصيانة الكتب قد جفّت، فاستعاض عنها «بالسوبر غلو» سريع الجفاف.

لصق (راضي) غلاف الكتاب، وأخذ رشفة من فنجان اليانسون، وأخذ يتفحص غلاف الكتاب ليتأكد من سلامة موضعه، لامس أحد أصابعه المادة اللاصقة دون أن يشعر، وعندما همّ بإرجاع الفنجان إلى الطاولة، اكتشف (راضي) أن إصبعه قد التصق به. سحب (راضي) إصبعه بقوة لكنه لم يفلح في تحريره، وبعد محاولات عدة من السحب والثني، نجح أخيراً في فصل اصبعه عن الفنجان. تأمل راضي رأس اصبعه وقد تشكلّت عليه طبقة زجاجية عنيدة حاول غسلها بالماء الساخن والصابون، لكنه لم يفلح في إزالتها.

توجه (راضي) إلى سريره بعد أن تكدّر مزاجه، استلقى على السرير منصتًا إلى صوت المطر المرتطم بشباك غرفته، وأخذ يتحسس اصبعه المزجج متأملاً القوة السحرية «للسوبر غلو».. تداخلت نظريات الثورة والالتزام التي يعج بها عقله، مع التفسيرات العلمية المحتملة لقوة «السوبر غلو»، برق في ذهنه التساؤل المجنون: هل يمكن «للسوبر غلو» بقوته السحرية العنيدة أن يحل إشكالية العلاقة ما بين النظريّة والممارسة التي طالما أرقته، والتي تزداد حدتها بعد عودته من كل مسيرة أو اعتصام، حيث يتسلل بغمده شعور ثقيل بالعدمية واللا جدوى يجثم على صدره!!!

لم يدرِ (راضي) لماذا لم يستطع في تلك الليلة الباردة الطويلة أن يبعد عن ذهنه القناعة المخيفة في عبثيّة تلك الكتب المتكدسة في كل مكان! خاصة تلك التي تتحدث عن الثورة منها، وشعر أنه عالق في فخ محكم منذ سنين، عندما وقع في حبائل الكتب متنقلاً من متاهة إلى متاهة، ومن أطروحة إلى

نقدها، ومن نقدها إلى نقد نقدها، وهكذا إلى أن أدخلته القراءة في دروب حلزونيّة متداخلة لا تنتهي، وأخذ يتذكر كم كتابًا قرأ عن المقاومة والثورة وهو لا يستطيع أن يقول «لا» ولو لمرة واحدة لمديره المنتفخ فسادًا وعمالة.

تحسس (راضي) بقايا «السوبر غلو» على إصبعه، وأخذ يتساءل: ماذا لو وضعت بعضًا من هذه المادة السحرية في قفل باب غرفة المدير! وماذا لو خلطت هذه المادة السحرية مع الصابون السائل الخاص بمستر جون، الخبير في مناهج تدريس التاريخ للصفوف الابتدائية، وماذا لو.....؟ وماذا لو.....؟

في الصباح اسيقظ (راضي) بعد ليلة طويلة قضاها في تمارين ذهنية الممارسة الثورية باستخدام «السوبر غلو»، وللمرة الأولى منذ أشهر، لم يتجه فور استيقاظه إلى كمبيوتره ليتفحص عدد «اللايكات» على صفحته على «الفيسبوك». غسل وجهه، وارتدى معطفه وتوجه إلى عمله، وفي نهاية يوم عمل طويل غادر مكتبه، وما إن وصل أسفل العمارة حتى سمع صراخًا مدويًا:

I CANT OPEN MY EYES" MY EYES, MY EYES»

عودة الكاميكازي

استيقظ (ميكادو تاكاهاشي) من نومه الساعة السابعة.

خرج من شقته الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، وصل إلى محطة قطار «المترو» الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة، انطلق القطار في الساعة السابعة والأربعين دقيقة، ودخل مقرّ عمله في شركة «كاسيو» الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة.

ما إن دخل (ماكيدو) مكتبه حتى أخذ يحزم حاجياته وأغراضه، إستعداداً للانتقال إلى مكتبه الجديد، بعد أن عيّن رئيساً لقسم البحث والتطوير في

شركة (كاسيو) لصناعة الآلات الحاسبة، ليتولى مهمة مهمّة تصميم «الآلة الحاسبة الخارقة»، أو «حاسبة القرن» كما سمّاها مدير الشركة.

رمق ميكادو مكتبه القديم بنظرة وداع.

حمل حاجياته، وصعد إلى الطابق الأربعين، حيث يقع قسم البحث والتطوير. دخل مكتبه الجديد، وبدأ بترتيب حاجاياته؛ عشرات كتب الرياضيات والهندسة، والكؤوس والشهادات التقديرية والميداليات التي حصل عليها في مسابقات الرياضيات الوطنية. تجاوزت علاقة (ميكادو) بالرياضيات، منذ أن أنهى المرحلة الجامعيّة الأولى، علاقة الأكاديمي بتخصصه، فقد رأى في الرياضيات ندًا محاربًا عنيدًا لا يُهزم، لأنه بكل بساطة يفرض قواعد النزال على خصمه، دفعته المبارزه الدائمة مع الرياضيات إلى ارتياد تخوم الفكر الرياضي، فأدمن منذ سنوات طويلة نظريات اللانهاية ونظريات الفوضى.

«الكاوس» جمع (ميكادو) إلى ولعه بمبارزة الفكر الرياضي ولعًا بالهندسة، إلا أنه في الآونة الأخيرة، وتحت تأثير روايات (يوكيو ماشيما)، أصبح مسكونًا بفكرة بناء هندسة جديدة أسماها «هندسة الخراب»؛ ففي كل صباح، وهو يعبر شوارع طوكيو المرصوصة بالحديد والأسمنت والبشر المسرعين، كان يفكر في الخراب الذي جعل كل هذا العمار ممكنًا في يابان ما بعد الحرب!.

لم يستطع (ميكادو) أن يتحرَّر من «تأثير الفراشة» في نظرية الفوضى، حيث يمكن لفراشة ترف بجناحيها فوق غابات الأمازون أن تتسبب بإعصار فوق باريس كما تنص النظريّة، وكان يغفو والفراشات تحوم فوق رأسه، وحين يستيقظ تصحبه فراشة بيضاء في طريقه إلى عمله، يرقبها وهي تقاوم تيار الهواء المنبعث من فتحات تكييف الهواء في القطار، وتدخل معه بناية الشركة، وما إن يفتح باب مكتبه، حتى تسبقه وتحطّ على لوحة تصميم «الآلة الحاسبة الخارقة»، سابلة جناحيها تحت أشعة الشمس المنبعثة من النافذة.

ما إن يبدأ (ميكادو) عمله في تصميم وبناء المعادلات الرياضية التي ستشكل دماغ الحاسبة الخارقة، حتى تبدأ الفراشة تراقص أدواته الهندسية وقلمه الذي خطّ به وهو يلاحق الفراشة على لوحة التصميم:

«في عالم تحكمه الحسابات الدقيقة، يصبح الخطأ الحسابي المقصود رمية النرد التي يمكنها أن تخلخل الوجود، وتعيد للإنسان بطولته المغدورة».

مضت سنتان منذ أن بدأت شركة (كاسيو) بتسويق حاسبة القرن، وبدأت سلسلة من الحوادث الغامضة تقع في شوراع طوكيو ومبانيها..

إشارات المرور تتحوّل إلى الأخضر قبل ثوان من تحوّل الإشارة في الجهة المقابلة إلى الأحمر، فترتطم السيارات ببعضها البعض، وأصبحت المصاعد تفتح أبوابها قبل أن تصل الطابق المنشود بسنتيمترات، فيتعثر الخارجون منها، وظهرت في الشوارع طوكيو سيارات تويوتا مصباحها الأيمن أكبر بقليل من المصباح الأيسر، ووصلت قطارات «المترو» متأخرة عن مواعيدها، وانهارت ناطحات السحاب أثناء تشييدها.

حالة من الصدمة والهلع عاشتها طوكيو، وأخذت الجرائد تصدر وعناوينها العريضة تتحدث عن اللعنة التي أصابت العقل الياباني. شُكِّلت الحكومة الجديدة، بعد استقالة الحكومة السابقة لها، عدة لجان للتحقيق، ولكنّ أيًا منها لم ينجح في الوصول إلى سبب الكارثة القوميّة.

صَمَتَ الخبراء والمختصون، وبدأ الناس يبحثون بطريقتهم الخاصة عن سرّ اللعنة الرهيبة، لعنة «الكاميكازي» المنسيون، هو التفسير الذي سرى بين الناس بعدما عجزت كل التفسيرات العلمية والعقلانية.

أخذ اليابانيون يحملون الأكاليل والبخور، ويتوجهون بها إلى النصب التذكارية لطيّاري «الكاميكازي»، وبدأت الأحاديث تتسلّل، شيئًا فشيئًا، الى مجالس الشاي حول امبراطورية الشمس، ومعاهدة الاستسلام، وقواعد المارينز في «أوكيناوا».

وحده (ميكادو) لم يتعثر عند الخروج من المصاعد، ووحده كان يصل في الموعد الدقيق لوصول قطار «المترو»، فوحده كان يعلم مقدار الخطأ الحسابي المزروع في دماغ «الحاسبة الخارقة». كم كان (ميكادو) منتشيا بعودة حكايات البطولة إلى المجالس، وكان يتفحص بشغف وجوه (الكاميكازي)، الذين ملأت صورهم شوارع طوكيو، غارقًا في تفاصيلها، إلى أن نسيَ في إحدى الأمسيات، أن ينتظر بضع ثوان قبل أن يعبر الشارع بعد تحوّل إشارة المرور إلى اللون الأخضر.

رائحة الديتول

مستسلمًا لدفء شمس آذار، يُمشّط الشيخ (ماهر) لحيته بأصابع يده، وهو مستلقٍ على سجادته، بعد أن فرغ من صلاة الظهر.

أخرج من جيبه «قائمة مهمات اليوم» التي أوكلها إليه (موشى) المنحدر من أصول عراقيّة، مدير وحدة النظافة في «كنيون» المالحة، راجع القائمة ممسكًا بقلم حبر مزركش وجده في إحدى حاويات القمامة، أعجبه فعقمه بمحلول «الديتول» واحتفظ به. بدأ بشطب ما أنجزه من مهمات وهو يتمتم بشتائم متنوعة تغطي (موشى) من رأسه إلى أخمص قدميه، لتصل إلى (رِفكا)، والدة (موشي)، (رفكا) التي يحضر لها صبيحة كل أحد علبة حمص من

البلدة القديمة، بناءً على طلب ابنها «موشي»، «فرفكا» - على ما قاله له «موشي» - تعشق حمّص القدس القديمة، فهو الأقرب إلى مذاق الحمص اللبناني الذي أدمنت عليه أثناء خدمتها العسكريّة في مكتب الارتباط المدني في مرجعيون بجنوب لبنان.

لا يطيق الشيخ (ماهر) رواد «كنيون» المالحة من العرب، وخاصة المتدينين منهم، فهم يتركون وراءهم بركا كبيرة من المياه بعد الوضوء، فيضّطره ذلك إلى إعادة مسح أرضيّة دورات المياه عدة مرات في اليوم.

لذلك كان يقول لمن يراهُ يشمر عن ساعديه استعدادا للوضوء: «إن ماء الصنابير في دورات المياه غير طاهر، ولا يصلح للوضوء لأنه ماء أعيد تَدويره».

كان (موشي) مسروراً بمساهمة الشيخ (ماهر) في الحفاظ على نظافة المكان، من خلال تقليله لعدد المتوضئين في دورات المياه في «الكنيون»، (فموشي) لا يستطيع فعل ذلك لئلا يُعتبر ذلك إساءة عنصرية للعرب، وتصرفًا غير لائقٍ مع الزبائن.

كان الشيخ (ماهر) مهووسًا بأحكام الطهارة والنجاسة، فكان يحرص على تقصير سرواله عشرة سنتيمترات على الأقل إبعاداً لذيل ثيابه عن النجاسات، و«يسبّع» يديه بعد الفراغ من عمله، مع أنه يرتدي قفازات سميكة، وكان يتحرّى مكانًا للصلاة بعيداً عن البلل والرطوبه اهتداءً بالقاعدة الشرعيّة «جاف على جاف طاهر بلا خلاف».

أما فترة الاستراحة فكان الشيخ (ماهر) حريصا أن يُمضيها مطالعًا

للجرائد العبريّة وهو يحتسي منقوع الحلبة المحلّى بالعسل، وكان يستخدم ما يقرأه لاستعراض قدراته في التحليل السياسي أثناء اجتماعه بإخوته وأخواته في بيت أبيه وأمه بعد الصلاة من كل يوم جمعة، وعلى الدوام لم يستطع أشقاء الشيخ ماهر تفسير التشابه الغريب بين تحليلاته السياسية وعناوين الصحف الفلسطينيّة الصادرة صبيحة يوم السبت.

في صباح يوم الجمعة، وبعد أن أنهى الشيخ (ماهر) جولة التنظيف الصباحيّة، دعاه (موشي) إلى احتساء قهوة «عليت» في مكتبه.

ركن الشيخ ماهر عربة النظافة في الممر، نزع القفازات وأخرج مسواكه ونظّف به أسنانه وتوجه إلى مكتب (موشي) الذي استقبله الترحاب، أدخله غرفة المكتب مغلقًا الباب، كانت رائحة القهوة تعجُ في المكان. قدم (موشي) إلى الشيخ (ماهر) كأسا من القهوة وبدأ بالحديث:

«شيخ ماهر أنت تعرف كم أثق بك وأحترمك، فأنت إنسان مستقيم وكتوم، إن والدي (حاييم) يعاني مرض «السكري» منذ سنين، وقد بدأ هذا المرض اللعين يؤثر على قدراته في الفراش على ما أسرّ لي به البارحة، وقد سمعت أن «الڤياجرا» في رام الله تباع بدون وصفة طبيّة، وبنصف سعرها في الصيدليات الاسرائيليّة، أريد منك أن تشتري لي ثلاثين حبة «ڤياجرا» من عيار ١٠٠ (ملغم) من رام الله، ولن أنسى لك هذا المعروف ما حييت».

رشف الشيخ (ماهر) رشفة طويلة من القهوة وهو يرمق (موشي) بنظرة لا تخلو من الخبث قائلاً: «يوم الأحد صباحًا ستكون الحبوب السحرية على مكتبك».

قالها الشيخ (ماهر) وهو على قناعة أن (موشي) يريد «الڤياجرا» علاجًا لعجزه لا عجز أبيه المُدَّعى.

في صبيحة الأحد أوصل الشيخ (ماهر) «الڤياجرا» إلى مكتب (موشي)، وبدأ يومه بتنظيف دورات المياه، سكب مادة «الديتول» المعقمّة وبدأ يفرك كتلة من البراز المتكلسة بعند في أحد المراحيض، انبعثت رائحة «الديتول» نفّاذةً حادةً فلم يستطع تحمّلها في ذلك الحيّز الضيّق، فرفع رأسه طلبًا للهواء النقي من الشباك الغربي لدورات المياه، انتصبت أمام عينيه مئذنة مسجد قرية المالحة المُهجّرة التي تعلوها لاقطات البث التلفزيوني، فحدّق فيها كأنه يراها لأول مرّة، تغلغلت رائحة «الديتول» إلى دهاليز جهازه العصبي، وإلى حجرات ذاكرته الموصدة، فاستدعت رائحةَ سائل التنظيف الذي كان يسكبه عامل النظافة الروسي الغليظ (ديمتري) على ممرات الزنازين الانفراديّة في «القسم عشرين» في سجن «المسكوبية» التي أمضى فيها عشرين يومًا قبل اثنتين وعشرين سنة.

خرجت من صدر الشيخ (ماهر) تنهيدة أدمت رِئتيه:

عندما تختلي بعدوّك ولا تَتَملكُكَ رغبة جامحة يصعب مقاومتها بالإطباق على عنقه، ينتهي بك الأمر مُطبقًا على برازه المتكلّس، وعاملاً حاسمًا في شعوره بالرضا عن فحولته، ومنعشًا لذاكرته الاستعماريّة في مرجعيون. كل هذا وأنت تنظر إلى مئذنة مسجد المالحة من شباك مرحاضه.

الشهداء لن يعودوا هذا الأسبوع

كان المخيم يغرق في ضباب كثيف لم يَشهد له مثيلاً منذ سنين، حتى تسلل الضباب إلى داخل البيوت من أسفل الأبواب المغلقة ومن فتحات الشبابيك.

حملت (لمياء) رزمةً من ورود الحنّون، وأخذت تَصنع منها باقات صغيرة. رَشتْ الباقات بالماء ووضعتها في سلة، وحملتها نحو مقبرة الشهداء في المخيّم. كان الضباب قد شكّل طبقة تشبه الثلج على المقبرة، فلم تعد تظهر إلاّ شواهد القبور..

بدأت (لمياء) زيارتها الأسبوعية للمقبرة التي داومت عليها منذ إستشهاد أخيها (محمود) قبل سنوات خمس. بدأت بتوزيع باقات الحنّون على مراقد الشهداء، مبتدئةً بقبر خطيبها (أحمد).

«صباح الخير يا (أحمد)، لقد أطاح برشلونة بريال مدريد بنتيجة خمسة إلى واحد».

«صباح الخير يا (سامي)، أريد أن أخبرك بأن أخاك الدكتور (سليم) توصل في أبحاثه اللغويّة إلى أن كلمة «شيكل» خطأ لغوي شائع، وأن الأفصح هو استخدام كلمة «شاقل».

«صباح الخير يا (سامر)، الكرمل يشتعل من جديد منذ أسبوع».

«صباح الخير يا محمود، لعله يُهمك أن تعلم بأنَ (الطاهر وطّار) قد مات».

كانت (لمياء) وهي تنفض الغبار عن مكتبة أخيها (محمود) قد وجدت بضع سطور كتبها معلقًا على رواية «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» للطاهر وطّار:

«لن يعود الشهداء، فهم يُداومون على الوقوف بالقرب من مداخل الأبنيّة مبتسمين، وهم يستمعون لصوت المتذمرين من طول الطابور وبطء الحارس الجديد في تفتيش الحقائب، يجلسون في المقاعد الأماميّة للحافلات، يَرقُبون توتر السائق عند صعود راكب ذي ملامح شرقيّة. يُواظبون على حضور مؤتمرات «مكافحة الإرهاب»، ويصفقون في نهاية الكلمات وهم يَتغامزون لنتائج التحليل النفسي. الشهداء لن يعودوا... لأنهم لا يطيقون حياة العاطلين عن العمل».